

المحاضرة (٢٩)

شعر نازك الملائكة

أصدرت نازك الملائكة خلال مسيرتها الشعرية ثماني مجموعات شعرية هي على التوالي: عاشقة الليل ١٩٤٧ شظايا ورماد ١٩٤٩ قرارة الموجة ١٩٥٧، شجرة القمر ١٩٦٨ مأساة الحياة وأغنية للإنسان ١٩٧٠، يغير ألوانه البحر ١٩٧٧، للصلاة والثورة ١٩٧٨ وأول دواوينها عاشقة الليل. يمثل شعرها المجموع ما بين ١٩٤١-١٩٤٦، وهذا معناه أن مسيرتها الشعرية إلى آخر مجموعاتها، قد استغرق منها حوالي أربعين عاماً.

ومعظم الذين تحدثوا عن شعرها قد أكدوا على النغم الحزين الذي يدعل منه ظاهرة من أبرز ظواهره، فقد أشار إلى ذلك العديد من الدارسين ومنهم اخت الشاعرة احسان الملائكة و يدوي طبانة و ابراهيم السامرائي و احمد ابو السعد و جليل كمال الدين و سلمان هادي طعمة و ماجد احمد السامرائي و محمد مصطفى هدارة و الطاهر احمد مكي و احسان النصر و عبد الله احمد المهنا و جابر عصفور و سالم الحمداني، وغيرهم.

ولهذا الاجماع دلالة في رصد التيار الذي يسود شعر نازك ، وهو تيار يستسقي مادته من روافد كثيرة اجتماعية وفكرية وثقافية، كما يستقيه من تجارب الشاعرة نفسها.

وربما يدرك الدارس سبب تأكيدنا لهذه الناحية، لأن شعر نازك كله تقريباً وعلى مدى أربعين عاماً تلون بهذا اللون الرومانتيكي ، وعلى الرغم من أن مواقف الشاعرة- كما ذكرنا- بدأت تتخذ منعطفاً تفاؤلياً بدا واضحاً منذ نشرت مجموعتها (يغير ألوانه البحر) و (للصلاة والثورة).

والذي نريد أن نقرره هو أن معظم تجارب نازك قد استقتها الشاعرة من حياتها الطويلة الممتلئة بالأحداث، ومن حياة المجتمع البشري، وما يتصل بهذه الحياة من أسرار الكون والغاز الطبيعية وغيرها.

وموقف نازك في كل هذه التجارب موقف واع يمتلك العمق والصدق، وحيث أنها- كما رأينا- كانت شاعرة مفرطة في الحساسية، رقيقة الشعور، لذلك تلوّنت افكارها الشعرية بالألوان المعتمة، فتلقت بالسواد، وسادها نغم حزين انتهى إلى موقف سلبي متشائم يرى كل شيء في الحياة على غير ما يتمناه ويحلم به.

ومن هنا فقد صدرت في معظم تجاربها وفقاً لهذا الموقف.

وموضوع القصيدة لدى نازك - هو الإنسان- وما يتصل به - كما ذكرنا ولذلك لم يخرج هذا الموضوع عن محوره بل صار مركزاً له.

والجدير بالذكر أن العناية بالإنسان - في موضوع القصيدة الحديثة- كان قد سبق إليه من قبل نازك شعراء المهجر وجماعة الديوان وجماعة أبولو، ولاشك أن شاعرتنا قد تأثرت، حيث

قرأت لهؤلاء الشعراء، بموضوع القصيدة كما أنها أعجبت بمجموعة منهم - كما ذكرنا- وربما أشارت نازك في كتابها (قضايا الشعر المعاصر) إلى إيثار المضمون في الشعر الحر. ولذلك كانت عنايتها بهذا المضمون الانساني الخاص، أسوة بمن سبقها من الشعراء وتعبيراً عن نظرتها الانسانية الخاصة تجاه الانسان.

ومن هنا كان تأكيد الشاعرة على موضوعات الانسان في حدود موته وغرخته وما عمل بذلك من أسرار الطبيعة والكون وغيرها.

ولقد احتل الانسان في شعر نازك قدراً كبيراً من رعايتها واهتمامها ما يدل على أنها تضع الانسان وحرية وحقوقه فوق كل اعتبار.

ولقد وضعت الشاعرة في تصورهما عالماً مثالياً للمجتمع البشري يسوده الحب وينعم فيه الإنسان بالسعادة وتذوب فيه أحقاد البشر. ومن أجل ذلك تصورت عالماً مليئاً بالعدل طافحاً بالقيم زاخراً بالمثل. وطلقت على هذا العالم (اليوتوبيا).

ولذلك تألمت حين رأت هذا الانسان يصرعه الظلم ويقتله الجوع والعري، فبكت لشقائه وتألمت لبؤسه فقالت:

فوجدنا دربنا جوعاً وعرياً	حدثونا عن رخاء ناعم
فأرأينا حولنا قبحاً وخزياً	وسمعنا عن نقاء وشذى
وكفاننا بؤسنا شبعاً ورياً	ورتعنا في شتاء قاتل
وكسبنا القيد والدمع السخياً	وعرينا وكسوننا غيرنا
وجنينا ظلمة الدهر العبوساً	وزرعنا وحصدنا زرعنا

ولقد امتلكت قصائد الشاعرة، الدقة في رصد الواقع الانساني، وجاء فكرها من النضج والعمق بما يدل على حسها الانساني الذي لا يعرف النظرة الضيقة، فهي تقول:

(فقد كنت أحب السلام والمودة والصدقة والعواطف الانسانية وحين لا اجد ذلك اخيب واحزن اشد الحزن واحس أن مثلي العليا تتحطم على صخرة واقع قاس لا يرحم) .

وقد كانت قصيدة (الأرض البياب) وقصيدة (الرجال الجوف) للشاعر الناقد الانكليزي توماس ستيرناليوت، تجسيدا لهذا الموقف الاجتماعي على الحضارة المعاصرة، وتابعه في ذلك العديد من شعرائنا المحدثين في مقدمتهم نازك والسياب وصلاح عبد الصبور واحمد عبد المعطي حجازي ومحمود درويش.

وقد جرت نازك ورأي العديد من الشعراء الذين هتفوا بالموت خلاصاً من عذاب الحياة من أمثال شكري والعقاد والشابي والهمشري، ومن قبل كانت قد اعجبت بكيتس وسمته شاعر الموت الأكبر.

وقد راحت الشاعر تشيد بالموت خصوصاً حين فقدت ما كانت تحلم به من عالم مثالي
يحترم الانسان ويقدم حريته ويمنحه حقوقه، وراحت تتمزق لما تجده من صور الزيف والظلم
التي تجابه الانسان، وترى أن الموت نعمة وخلصاً:

أفليس الممات في ميعة العمر إذن نعمة على الأحياء
حين ينجو الحي الشقي من الخوف ويفنى من واجبات الفناء
تاركاً هذه الحياة وما فيها من الزيف والبؤس والايام
بين كف الرياح والقدر العاتي ونوح الشيوخ والايام

وواضح أن طلب الموت هنا، سببه شقاء الانسان حبيباً يتيماً وشيخاً كبيراً.
وإذا كانت الابيات السالفة تجعل من الموت خلاصاً ونعمة، فإن الشاعر قد ذهبت إلى
ابعد من هذا في تعاملها معه، فهي ترى أحياناً في الموت خلوداً وراحة:
سأرى في الممات خلد حياتي حين تغفو عني المنى والجروح

وعلى الرغم من وضوح موقف الشاعرة من الموت وترحيبها به، إلا أنها في مرحلة
ضعف عقيدتها وقلّة تجاربها وخبرتها، كانت تتعذب لما تراه من فناء الانسان بعد الموت، ومن
استحالة إلى جماجم ينخر منها الدود، فقالت في معرض كلامها عن الإنسان:

هو الوحدة المريرة والظلمة في قبره المخيف الرهيب
تحت حكم الديدان والشوك والرمل واي الفناء والتعذيب
حسبه أن يودع دنياه إلى قبره وتغنى مناه
فتركوا نعشه على الأرض حيناً قبل أن تقبروه تحت اللحد
هكذا الآدمي يسلمه أحبابه للشراب والديدان
ولقد تجسد الموت أمام عينها بشكله الواقعي المعروف، فمأساة الانسان لا بد أن تنتهي

بالموت، لذلك ارتبط لديها بالخوف والقلق على مصيره. فنقول:
أي قبر أعددت لي أهو كهف ملئ أنحائه الظلام الداجي
أبدأ أسأل الليالي عن الموت وماذا ترى يكون المصير

والواقع إن هذا التصوير الرهيب للموت من جانب الشاعرة قد عكس علاقتها به، على
الرغم من ترحيبها به خلاصاً من عذاب الحياة وقسوتها، لذلك كانت صورته لديها رهيبية،
خصوصاً في مراحل حياتها المبكرة. حيث تقول (أما أنا فلم تكن عندي كارثة أقسى من الموت).

ومن المضامين الرئيسية في شعر نازك، الحب، وهو موضوع استأثر معظم الشعر الحديث. كما استأثر الشعر الإنساني منذ أقدم العصور.

والبحث في حب نازك قد أثار مسألة الحكم على واقعيته وصدقته، أي هل كان تعبيرها عنه يمثل تجارب حقيقة كما يرى بعض الدارسين، أم انها كانت تجارب متخيلة كما يحكم عليها البعض الآخر .

والبحث في ممارسة تجربة الحب لدى نازك ليس مشكلة، لأن المهم لدينا هو الصدق في التجربة سواء كانت واقعية أم متخيلة كما يرى ذلك محمد مندور .

ولو حاولنا فهم طبيعة الشاعرة وعواطفها وأحاسيسها ومشاعرها، لأدركنا صدق ما عبرت عنه من تجارب في الحب.

وعلى الرغم من أن الشاعر لم تبح بمشاعرها في الحب لأسباب تحتفظ بها، إلا أننا تحس في قصائد حبها حرارة العاطفة وصدق الموقف. وهذا هو الذي حدا بأحد الباحثين إلى أن يقول عن نازك (ظلت فترة طويلة تعيش انسحاق عواطفها وخيبة آمالها في تحقيق النجاح بعواطفها، ولقد كانت نازك هي شعرها. ولهذا كان شعرها صادقاً ومعبراً التعبير الحقيقي عن نبضات قلبها).

ويبدو أن تجارب الشاعرة في الحب قد ارتبطت بالماضي وقسوته وضغطه على الشاعرة. ولذلك فإن الزمن الماضي قد لعب دوراً واضحاً في تجارب حب نازك، حتى ارتبط بظاهرة التكرار التي أولتها الشاعرة عناية فائقة في نقدها، والتي تمثل لديها دلالات خاصة كما نرى.

ولذلك نجد لفظة (عد) في إحدى قصائدها عن الحب، حيث تقول:

عد، لم يزل قلبي نشيداً حالماً	يشدو بحبك لحنه المفتون
عد، فالكآبة أغرقت بظلامها	روحي، فليالي ادمع وشجون
عد، لا تدع نفسي يعذبها الأسى	ويغص فيها خافق محزون
عد، فالحياة أو رجعت أشعة	ومشاعر سحرية وفتون

فتكرار لفظة (عد) هنا له دلالة ترتبط بالماضي والماضي عند نازك يتصارع مع الواقع، والحاضر في حقيقته ثقيل قاس.

وقد تكررت كلمة (مر عام) في عدة قصائد تكراراً ملحوظاً في موضوع قصيدة الحبن ولا يتسع المجال للكلام عليه هنا .

ومتلما ارتبط الحب بالزمن الماضي فقد ارتبط بسواد الليل وجفاف الأرض في عدة قصائد، وكذلك ارتبط بالأحلام والأيام الخوالي، وساده نغم حزين والم دفين، وعبرت عنه الشاعرة

بما يوحي إلى عمق الإحساس وحرارة التجربة وصدق الموقف، لقد تركت تجارب الحب لدى الشعراء الرومانتيكيين، آثاراً نفسية متميزة، انتهت في معظم الأحيان إلى الملل من الحياة، والشعور بالخيبة والمرارة، وكان من آثارها الشعور بقسوة الزمن الذي يمر. ولذلك تلفع الزمن في قصائد الحب لدى نازك بالقتامة والرتابة والبطء، وترك في نفسها خيبة نفسية وشعوراً بالألم. ولا بد من القول أن الشاعر حاولت أحياناً أن تميظ اللثام عن نوح حبها الذي خاضت في سبيل تحصيله حرباً مع الزمن. لقد صورته بأنه حب نقي روحاني خالد، أنه يقترب من حب العذريين الذين تغنوا بصفائه وسحره، تقول الشاعرة.

حبي الإلهي النقي ظلمة
قلبي الرقيق اسأت فهم حنينه
لم أدر ماذا كان إلا رعشة
وخلا المكان ورحت اسأل وحشتي

وفاء روعي الشاعر العابر
ونشيد احلامي وروح قصائدي
في روعي الولهي وقلبي الشارد
عن طيفك الناس وحبني الخالد

وهذا التصوير للحب، يتفق مع عالمها المثالي الذي سبق أن أشرنا إليه. استلهم الشعراء الرومانتيكيون الطبيعة للتعبير عن هواجسهم النفسية ولتجسيد ما تتبئء عنه خواطهم ومشاعرهم وأحسيهم الدافقة. (ولاشك أن لرهف الحس عند الرومانتيكيين اثراً عظيماً في هيامهم بالطبيعة في جميع مظاهرها. فهم يريدون أن يستلهمونها ويستوحوا أسرارها، وأن يكون ادبهم صورة صدق للشعور الصادق بما يتجلى لاحساسهم من مظاهرها) وإذا كان لرهافة الحس أثر في هيام الشاعر بالطبيعة، فما اجدر أن يكون لشاعرتنا حضور واضح في كل مظاهرها. ونظن أن نازك قد امتلكت حساً دقيقاً في رصدها لكل مظاهر الطبيعة. وأولها الليل الذي لفعت به أول دواوينا (عاشقة الليل)، ولأن الليل كان بلسماً لجرحها ورتاء لعواطفها ومشاعرها بل كان تنفيساً عن أنواع العذاب التي صدمتها:

آه يا ليل وياليتك تدري ما مناها
جنها الليل فأغرتهما الدياجي والسكون
فمن العود نشيخ ومن الليل الحنين

والواقع، ان للفظه (الليل) وما يتصل بها من ظلمة ودياجي ومساء وغيرها، دلالات نفسية بعيدة، كثيراً ما تتحول لديها إلى رموز تكمن وراءها عوالم واسعة لا يستطيع كشفها إلا من رافق نازك في رحلتها الطويلة وقد ارتبط بالليل مجموعة من مظاهر الطبيعة، كالبحر والنجم والريح وتحول كثير منها إلى رموز ذات دلالات مختلفة:

في لجة البحر الرهيب سفينة تحت الماء

وتسير أمواج البحور على شبابي المغرق
البحر يا زورقي جنون وموجه نائر دقوق
وأنت في الموج والدياجي يا زورقي في غد غريق
وكذلك في شعرها، الريح والأعاصير

ومع أن مظاهر الطبيعة قد توزعت في شعر نازك إذ ليست لها قصائد وصفية لوحدها، إلا أننا مع هذا نجدها في حالات الصحو والارتياح النفسي، تكتب قصائدها التي تتغنى فيها بالطبيعة، لتندمج بمظاهرها الساحرة، إعجاباً بها، وافتاناً بروعتها، وبما يثير في نفسها إحساساً خاصاً بالحب.

وهكذا راحت نازك في إحدى قصائدها تصف جمال الطبيعة في شمال العراق، فتجوب سفوح الجبال والتلال، وتتدفأ في أحضان الحقول والورود، وتتقيأ في ظلال الصفصاف وتتغنى بخيرير الماء وتطرب لنغم المطر مع الرعاة وأغانهم، وتهيم في شجرات الدفلي، وتفضل ظلالها على ظلال القصور وتقول:

وأشوقوا الثلج في سفوح جبال الأرض	والورود في سفوح التلال
وأصيخوا لصوت قمريّة الحقل	تغني في واجفات الليالي
أجلسوا في ظلال صفصافة الوادي	وأصغوا إلى خريير الماء
واستمدوا من نغمة المطر الساقط	أحلى الالهام والايحاء
وتغنىوا مع الرعاة إذا مروا	على الكوخ بالقطيع الجميل
شجرات الدفلي أجمال ظلاً	من ظلال القصور والشرفات

وهكذا تستلهم نازك، الطبيعة وتستوحي أسرارها وجمال وروعته لاطهار مشاعرها الذاتية وعواطفها الرقيقة.

ولشاعرتنا شعر كثير يعكس إعجابها بسفوح الجبال وأعماق الغابات، وربما كان هذا هروباً من عالم المدينة إلى حياة الغاب التي سبقها إليه شعراء المهجر. وأقرب فصول السنة إلى نفس نازك هو الخريف، بل هو أقرب إلى نفوس كل الرومانتيكيين الحالمين، لأنه فصل سبات الطبيعة، حيث تعصف الريح بالاشجار، وتسقط الاوراق وتذبل الزهور ويجف الثمر وتصفر الحقول، ومن خلال مظاهره عبر الرومانتيكيون عن مآسيهم وبكوا احزانهم، ورثوا قصائدهم ، وندبوا حظوظهم.

في مجموعات (عاشقة الليل) و(شظايا ورماد) و(قراءة الموجة) وفي غيرها أيضاً تتضح النزعة الرومانتيكية في شعر نازك الملائكة، ومع هذا فإن القارئ يلحظ في قصائدها اتجاهاً

واقعيًا تستمد موضوعاته من حياة الأمة العربية وخصوصاً في سعيها إلى الحرية والتحرر والانطلاق.

وقد بدأ هذا التيار في مقدمتها لديوان أمها (أنشودة المجد) وفي اهدائها الذي أفصحت به عن انتمائها القومي الواقعي.

وحين قامت ثورة ١٩٥٨ في العراق غنت نازك للثورة بقولها:

جمهوريتنا، فرحتنا، يا حرقة أشواق وحنين

نحن عطشنا لك اعواماً

جعنا وسهرنا، فذيناها احلاماً

والان ملكانها دفقة ضوء ويقين

وقد جاءت هذه القصيدة في ديوان (شجرة القمر).

وأكثر مما تتضح هذه الواقعية في قصائدها التي تتسم بالنزعة القومية، وخصوصاً حين

تتادي بالوحدة العربية وتدعو إليها:

ونحن بالمهد صغار المنى

على تلال الرمل في أمسنا

منافاخفى ضوءها المنحنى

الوحدة الكبرى شدونا بها

وكم بنينا صرحها المشتهى

وكم حسبنا أنها قد دنت

على أن هذا لا يعني أن واقعية نازك لا تظهر إلا في قصائدها القومية، فالذي نره أن الشاعرة بدأت تفكر تفكيراً واقعياً بعيداً عن المثالية منذ أن اطلقت مقولتها (والحمد لله على أنني انتهيت إلى الإيمان بالله إيماناً كاملاً عام ١٩٥٧) على الرغم من أن هذا الاتجاه كان يسير سيراً بطيئاً، إلا أن الذي يقوم به، هو أن معظم زملاء نازك من الشعراء بدأوا منذ انئذ يتجهون اتجاهاً واقعياً بحكم التزامهم بمبدأ اليسار الذي كان رد فعل للوضع القائم في العراق. كما أن آخرين منهم اتجهوا اتجاهاً قومياً عربياً بفعل تأثيرهم بثورة ١٩٥٢ في مصر.

والواقع أن نازك الملائكة كانت محاصرة بوضعها النفسي وإحساسها الحاد وإيمانها بعالم (اليوتوبيا) الذي كانت تحلم به حلماً كبيراً، لذلك ظل ذلك التيار العاطفي يرتبط بها بشكل أو بآخر بينما كان التيار الواقعي يشق طريقه ببطء أيضاً، حتى إذا طلعت علينا الشاعرة بديوانها (يغير الوانه البحر) عام ١٩٧٨ وتلته بديوانها (للصلة والثورة) عام ١٩٧٩، برز الاتجاه الواقعي مخلفاً وراءه النزعة الرومانتيكية ومستعياً عنه بنزعة متفائلة، تدفع بالشاعرة إلى مناضلة الحياة ومصارعة ما قد يعود بها إلى الوراء. وربما كان مفتاح ذلك في رأينا، هذا الإيمان الذي وصل لديها إلى ما يشبه الوجد الصرفي. فبعد أن كانت تتمزق وتتألم حيث تقول:

الريح مزقت الشراع فأين يضرب زروقي

وتسير أمواج البحور على شبابي المغرق
رأيناها تتجه بفعل صحتها الايمانية إلى الله فتقول:

وإلى الشمس إلى اعلى الذرى

يمتد جذعي وغصوني

حيث ألقى في المدى وجه مليكي

لقد نظرت الشاعرة إلى صورة الأمة العربية نظرة فاحصة دقيقة تدل على امتلاكها قدرة شديدة في رصد حياة الأمة. وجابهت هذه الصور المؤسسية مجابهة واقعية شجاعة لا تخشى عتياً ولا غضباً، واضعة نصب عينها (المعادلة) التي آثرنا إليها والتي يجسدها قولها:

متى نصلي

إنما صلاتنا انفجار

صلاتنا ستطلع النهار

تسلح الغزل، تعلي راية النوار

صلاتنا ستشعل الاعصار

ستزرع السلاح والزنبق في القفار

تحول اليأس إلى انتصار

صلاتنا ستنقل الجذب إلى اخضرار

وعلى هذا المفهوم قام نقدها لحياتنا العربية القائمة، فأنشأت تنشد قصائدها التي تخترق كل اعتبار سياسي واجتماعي، تضع النقاط على الحروف، ولتقول كلمتها الصريحة دون خوف أو وجل أو موارد أو نفاق.

وهكذا راحت نازك تحلل أوضاع أمتها المتهرئة، في شجاعة تمتلك الصدق الفني

والشعوري

ولعل من أشد ما كان يؤلم شاعرتنا، صورة المرأة التي عبرت عنها بقولها : (أن المرأة العربية متخلفة، فهي تتصف بالثرثرة والتبرج وتفاهة الحديث، وضعف الشخصية، وكان هذا كله يجرح إحساسي جرحاً بليغاً، وبذل كرامتي الفكرية، فاتعذب به إلى درجة لا يتخيلها أحد)

لكنها بعد أن اتجهت اتجاهها واقعياً، اخذت تواجه تلك الصورة مواجهة شجاعة تبتعد بها

عن الألم والدموع فهي تنقد تلك الصورة نقداً تمتلك الجرأة فتقول متهكمة:

أظفارك الطوال يا سيدتي أظليها

بصبغ قرمزي لين

راقصة البجعة ميساء كأغصان الكروم الممراعة

خدودها من حمرة مبقعة

شبابها ما أروعه

وخضرها ما ابداعه

هذه هي الصورة تداعي المرأة في مجتمعنا العربي المعاصر، وهي لا تصدق عليها فقط، بل تتسحب على الرجل أيضاً، كما رأيت نازك فهي تقول:

أغنية جديدة تنشدتها نجاة

هذا المساء حفلة شاهرة وعشر راقصات

عري وخمر، خاسر من لم يذق

الكأس تلو الكأس حتى يترنح الأفق

حتى نكون قد تخلصنا من اليهود

أن هذه المواجهة ليست موقفاً رومانسياً، تواجهه به الشاعرة مظاهر التداعي التي تحيق بالأمة العربية، وإنما تؤكد الموقف الملتزم الذي ألزمت الشاعرة نفسها به.

المصادر:

١- لشعر العراقي الحديث/ جلال الخياط

٢- الشعر الحر في العراق/ يوسف الصائغ

٣- نازك الملائكة: الموجة القلقة- ماجد احمد السامرائي

٤- ظاهرة الحزن في شعر نازك الملائكة

٥- الرومانتيكية: محمد غنيمي هلال